

تفسير البحر المحيط

@ 45 @ وجولانها فيما هو أصلب من الحديد ، فبدأ أولاً بالصلب ثم ذكر على سبيل الترقى
الأصلب منه ثم الأصلب من الحديد ، أي افرضوا ذواتكم شيئاً من هذه فإنه لا بد لكم من البعث
على أي حال كنتم . وقال ابن عمر وابن عباس وعبد الله بن عمر والحسن وابن جبير والضحاك
الذي يكبر الموت ، أي لو كنتم الموت لأما تكلم ثم أحياكم . وهذا التفسير لا يتم إلا إذا
أريد المبالغة لا نفس الأمر ، لأن البدن جسم والموت عرض ولا ينقلب الجسم عرضاً ولو فرض
انقلابه عرضاً لم يكن ليقبل الحياة لأجل الضدية . وقال مجاهد : الذي يكبر السموات والأرض
والجبال ولما ذكر أنهم لو كانوا أصلب شيء وأبعده من حلول الحياة به كان خلق الحياة فيه
ممكناً . قالوا : من الذي هو قادر على صيرورة الحياة فينا وإعادتنا فنبههم على ما
يقتضي الإعادة ، وهو أن الذي أنشأكم واخترعكم أول مرة هو الذي يعيدكم و { الّـذِى }
مبتدأ وخبره محذوف التقدير { الّـذِى فَطَرَ كُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } يعيدكم فيطابق
الجواب السؤال ، ويجوز أن يكون فاعلاً أي يعيدكم الذي فطركم ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ
، أي معيدكم الذي فطركم و { أَوَّلَ مَرَّةٍ } ظرف العامل فيه { فَطَرَ كُمْ } قاله
الحوفي . .

{ فَسَيُذْغَضُونَ } أي يحركونها على سبيل التكذيب والاستبعاد ، ويقولون : متى هو ؟ أي
متى العود ؟ ولم يقولوا ذلك على سبيل التسليم للعود . ولكن حيدة وانتقالاً لما لا يسأل
عنه لأن ما يثبت إمكانه بالدليل العقلي لا يسأل عن تعيين وقوعه ، ولكن أجابهم عن سؤالهم
بقرب وقوعه لا بتعيين زمانه لأن ذلك مما استأثر الله تعالى بعلمه ، واحتمل أن يكون في {
عَسَى } إضمار أي { عَسَى } هو أي العود ، واحتمل أن يكون مرفوعها { أَن يَكُون }
فتكون تامة . و { قَرِيبًا } يحتمل أن يكون خبر كان على أنه يكون العود متصفاً بالقرب
، ويحتمل أن يكون ظرفاً أي زماناً قريباً وعلى هذا التقدير يوم ندعوكم بدلاً من قريباً
..

وقال أبو البقاء : { يَوْمَ يَدْعُوكُمْ } ظرف ليكون ، ولا يجوز أن يكون ظرفاً لاسم
كان وإن كان ضمير المصدر لأن الضمير لا يعمل انتهى . أما كونه ظرفاً ليكون فهذا مبني
على جواز عمل كان الناقصة في الطرف وفيه خلاف . وأما قوله لأن الضمير لا يعمل فهو مذهب
البصريين ، وأما الكوفيون فيجيزون أن يعمل نحو مروى يزيد حسن وهو بعمرو وقبيح ،
يعلقون بعمرو بلفظ هو أي ومروى بعمرو قبيح . والظاهر أن الدعاء حقيقة أي {
يَدْعُوكُمْ } بالنداء الذي يسمعكم وهو النفخة الأخيرة كما قال { يَوْمَ * يُنَادِى *

وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ { الآية ويقال : إن إسرائيل عليه السلام ينادي أيتها
الأجسام البالية والعظام النخرة والأجزاء المتفرقة عودي كما كنت . وروي في الحديث أنه
قال صلى الله عليه وسلم) : (إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فأحسنوا
أسماءكم) . ومعنى { فَتَسْتَجِيبُونَ } توافقون الداعي فيما دعاكم إليه . وقال
الزمخشري : الدعاء والاستجابة كلاهما مجاز ، والمعنى يوم يبعثكم فتنبعثون مطاوعين
منقادين لا تمتنعون انتهى . والظاهر أن الخطاب للكفار إذ الكلام قبل ذلك معهم فالضمير
لهم و { بِحَمْدِهِ } حال منهم . قال الزمخشري : وهي مبالغة في انقيادهم للبعث كقولك
لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويمتنع ستركبه وأنت حامد شاكر ، يعني أنك تحمل
عليه وتقسر قسراً حتى أنك تلين لين المسموح الراغب فيه الحامد عليه . وعن سعيد بن جبير
ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون : سبحانك اللهم وبحمدك انتهى . وذلك لما طهر لهم من
قدرته